

مجلة الهلال

أغسطس 2004

رتق ثقب العولمة وبناء الإمبراطورية الأمريكية

بقلم: د. رعوف عباس

تعددت التحليلات، وتتنوع الاجتهادات في تفسير الموجة العاتية من سياسة الهيمنة التي تتبعها الولايات المتحدة الأمريكية، مستخدمة كل ما لديها من إمكانيات من القوة العسكرية، إلى الضغوط السياسية، إلى اللعب بورقة الاقتصاد في إطار اقتصاد عالمي يعطيها وضعاً مركزياً على درجة خطيرة من التأثير.

وقد شهد شهر أبريل 2004 صدور بعض الكتب التي أماطت اللثام عن بعض تفاصيل ما دار في البيت الأبيض ووزارة الدفاع (البننتاجون) حول مجريات الأحداث بعد 11 سبتمبر 2001، ولكن أخطر ما صدر في ذلك الشهر ذاته كتاب توماس بارنت Thomas Barnett الذي قدم فيه إطاراً شاملاً لإستراتيجية الإمبراطورية الأمريكية حمل عنوان: "خارطة البننتاجون الجديدة: الحرب والسلام في القرن الحادي والعشرين".

وترجع أهمية الكتاب إلى الموقع لخطر الذي يحتله صاحبه في صناعة القرار الإستراتيجي بوزارة الدفاع الأمريكية، فهو كبير الباحثين في الإستراتيجية بمركز دراسات الحرب البحرية بكلية البحرية الحربية الأمريكية، واختير منذ نوفمبر 2001 حتى الآن للعمل مستشاراً للإستراتيجيات المستقبلية بمكتب "تطوير القوات" الملحق بمكتب وزير الدفاع، فهو العقل المفكر المعاون للأدميرال آرثر سيروفسكي مدير المكتب فيما يتصل بالرابطة بين التغيير في مجالات الأمن الدولي ومشروع تطوير القوات الأمريكية، كما يعمل توماس بارنت مستشاراً إستراتيجياً لبعض الوكالات الفيدرالية المهمة وبعض المؤسسات المالية الكبرى وغيرها من قلاع قطاع الأعمال بما في ذلك بورصة الأوراق المالية بـ "ول ستريت".

ونشر عدداً من المقالات عن موضوعات تتصل برؤيته الإستراتيجية في الأعوام 2002 - 2004 بصحف ومجلات مهمة مثل النيويورك تايمز، والواشنطن بوست، والكريستيان سايتس مونيتور، والبروفيدانتس جورنال، واسكواير، وجميعها صحف تعبر عن اليمين المحافظ، وتعد منابر للتعبير عن طموحاته وسياساته.

كذلك نشر توماس بارنت عشرة أبحاث علمية فى السنوات الأربع الأخيرة بعدد من المجالات المتخصصة فى الدراسات الإستراتيجية تتناول أطرافاً من القضايا التى ضمنها كتابه الجديد "ارطة البنتاجون الجديدة : الحرب والسلام فى القرن الحادى والعشرين"، وألقى العديد من المحاضرات منذ العام 2003 على عدد محدود من كبار الموظفين بالإدارة الأمريكية، وكبار ضباط الجيش والبحرية والطيران، ورجال المال والصناعة، وبعض عناصر المفكرين، وقادة الرأى العام من رجال الإعلام وهى محاضرات عرض فيها الإستراتيجية الجديدة، وتناقش حولها مع الحضور، ولا ريب فى أن ترتيب هذه اللقاءات تم عن طريق مكتب وزير الدفاع لإقناع مختلف دوائر القوة بأهمية الإستراتيجية الجديدة لهم ولبلادهم واختارته مجلة سكوإير ليحتل المركز الثالث بين 25 شخصية اعتبرتهم من "بناة المستقبل" (نوفمبر 2003).

وهكذا نجد أنفسنا أمام شخصية تلعب دوراً فى صياغة الإستراتيجية الأمريكية الجديدة، وتعتبر عنها فليس توماس بارنت مجرد باحث أكاديمى فى مجال الإستراتيجيات المستقبلية، ولكنه مشارك أساسى فى صناعة هذه الإستراتيجية من خلال وضعه بمكتب وزير الدفاع الأمريكى.

القدرة على خوض الحروب

فإذا انتقلنا إلى الكتاب نجده يبدأ بانتقاد مدرسة الإستراتيجية الأمريكية التى ترى العالم من زاوية الدول الكبرى وقوتها العسكرية، وعلاقتها ببعضها البعض من خلال تلك الزاوية الضيقة، على زعم أن ضبط الأمور من هذه الناحية يضع أوضاع العالم فى نصابها الصحيح، وغلبة هذا الاتجاه على النظرة إلى القوة العسكرية الأمريكية من حيث قدرتها على خوض غمار حروب كبيرة ضد "القوى الكبرى"، والتعامل على هذا الأساس فى القضايا الأمنية على الساحة الدولية فتجمع بين القوة ذات القدرات التكنولوجية العالية، مع توفر القدرة على خوض غمار "حروب صغيرة"، أو القيام بعدد من العمليات العسكرية فى أى بقعة من العالم، حدث هذا قبل أن تطوى صفحة الحرب الباردة، وظل كذلك بعد سقوط الإتحاد السوفييتى وانفراط عقد حلف وارسو تحسباً لصعود قوة الصين، حتى وقع حادث 11 سبتمبر 2001 ليدفع وزارة الدفاع الأمريكية إلى إعادة توجيه التحول فى سياستها العسكرية لتتناسب مع "الحرب الكونية" ضد الإرهاب.

فجوة العولمة

وهكذا صرف النظر عن الصين التى تبذل جهوداً مضنية للاندماج فيما يسميه بارنت "مركز العولمة الفعال" وبدأ إعادة توجيه السياسة الدفاعية الأمريكية وفق خطة بعيدة المدى لمواجهة ما هو أهم، وهو ما اسماءه "فجوة Gap" العولمة، وهى البلاد التى لم تندمج فى العولمة، وتضم جميع البلاد الإسلامية فى وسط وجنوب شرق آسيا والشرق الأوسط، وأفريقيا، وأمريكا اللاتينية، ويشبه هذه "الفجوة" التى استعصت على العولمة بنقبة الأوزون، فهى تمثل "ثقباً كبيراً" فى عصر العولمة، وتعد مراكز للتهديد والإرهاب الدولى، ومن هنا تأتى أهمية تحول السياسة الأمنية الأمريكية لخدمة إستراتيجية رتق هذا الثقب

بتحويل هذه البلاد المبعثرة للحاق "بمركز العولمة الفعال" وعلى أمريكا أن توجه جهودها العسكرية لتضييق هذه "الفجوة" وتصفية الصراعات الإقليمية، وإدماج تلك البلاد في "العولمة" فإذا تقاعست أمريكا عن القيام بذلك، وانكفأت على شئونها الخاصة، فسوف يتآكل بسرعة وضعها الدولي، وتلقى العولمة مصيرا مؤسفا على يد نحو ثلث سكان العالم فمن يعانون التخلف ويصدرون العنف مما يعكس سلبيا على الولايات المتحدة ذاتها، ويؤثر على نمط حياة الأمريكان، وغيرهم ممن يحتلون مركز العولمة والعمل على تضييق الفجوة بكل السبل لا يعنى عنده مواجهة العالم الإسلامى أو غير المسيحي بدوافع دينية صليبية، أو دوافع خيرية إنسانية، ولكن العمل المباشر لمعالجة الفجوة ضرورة أمنية للولايات المتحدة وللعالم الذى ينشد حياة أفضل يسودها الأمن والسلام.

تضييق فجوة العولمة

ولكنه يرى أن القوة العسكرية لا تكفى وحدها لرتق ثقب العولمة أو تضييق الفجوة لأن عدو الغرب اليوم ليس "دولا" أو "حكومات" أو "جيوش" بعينها، ولكن الغرب يواجه اليوم منظمات عسكرية كالقاعدة يقودها أفراد يهيمنون على وجوههم فى مختلف أرجاء العالم، مستفيدين من الظروف السياسية والاقتصادية المتدنية فى بلاد "الفجوة".

وبذلك أصبح لزاما على أمريكا بعد سقوط الإتحاد السوفييتى (إمبراطورية الشر) أن تعمل على إسقاط أنظمة الشر وأن تطارد وتصفى الزعماء الأشرار، ولا بد أن تفتن الإستراتيجية (الدفاعية) الجديدة بعيدة المدى بإستراتيجيات أخرى مثل التجارة الدولية، واتجاهات الهجرة والتحكم فى أسواق الطاقة الدولية، وحركة الأموال المتجهة إلى بلاد "الفجوة" على شكل استثمارات مباشرة أو معونات.

وعلى حين يشيد بارنت بإدارة بوش التى وضعت إستراتيجية التحول العسكرى لمواكبة المتغيرات الدولية بعد حادث 11 سبتمبر 2001، فإنه يأخذ عليها عدم التحرك بطريقة فعالة لشرح هذه الإستراتيجية للشعب الأمريكى والحلفاء الأوروبيين لإقناعهم بحقيقة الأوضاع الدولية وخطورة إهمال "فجوة" العولمة على أمن العالم وتهديده لهم من النواحي الاقتصادية والاجتماعية عن طريق تصاعد الإرهاب، وتدفق المهاجرين إلى بلادهم، مما يؤثر سلبيا على مستوى معيشة شعوب مركز العولمة.

الاعتقال لمجرد الشبهة

ويرى المؤلف أن إهمال شرح الإستراتيجية الجديدة للشعب الأمريكى مسئول عن المعارضة التى تلقاها سياسة إدارة بوش، فيما يتعلق بقانون الوطنية وما ترتب عليه من تضييق على الحريات الشخصية للمواطنين، وتعرضهم للاعتقال بمجرد الشبهة، وما تواجهه سياسة "الضربات الإستباقية" من نقد وعنده أن هذه الإجراءات الاستثنائية ضرورية لضمان تنفيذ الإستراتيجية الدفاعية الجديدة، وأن قيام أمريكا بالضربات الاستباقية لمصادر الخطر فى الحرب ضد الإرهاب، يتم الآن نيابة عن "مركز العولمة" كله،

وأن على بلاد المراكز الأخرى أن تدرك أهمية هذا العمل وتقدم له الدعم، وأن أحد أغراض تأليفه هذا الكتاب توعية مواطنيه (الأمريكان) وشعوب المركز بأهمية الإستراتيجية الجديدة وضرورة تبنيها.

ويقتضى تنفيذ هذه الإستراتيجية بعيدة المدى - فى رأيه- استيعاب درس التدخل فى العراق لإسقاط نظام صدام، فالقوات التى قامت بهذه المهمة أثبتت عدم قدرتها على إرساء دعائم السلام، ولذلك لابد من إعادة تنظيم وزارة الدفاع على "قواعد جديدة" تلائم متطلبات العصر الجديد، متطلبات القرن الحادى والعشرين، بحيث تنقسم القوات الأمريكية إلى قسمين كبيرين القوة الساحقة المرعبة التى تعتمد على البحرية والسلاح الجوى، ومهمتها التحرك الدائم فى مناطق "الفجوة" وتوجيه الضربات الساحقة، والقوة الأخرى قوة إدارة النظام تختص بتصدير الأمن إلى مختلف أرجاء "الفجوة" بصفة دائمة، وأن يتم وضع قواعد جديدة لعمل كل من القسمين الكبيرين، يتوافق مع متطلبات العصر، وبفضل هذه الإستراتيجية "الدفاعية" بعيدة المدى يتم "رتق" فجوة العولمة ويتحقق السلام فى أرجاء الأرض ويرى أن التهاون فى تطبيق هذه الإستراتيجية سوف يؤدى إلى تقسيم مركز العولمة الفعال إلى عدة مراكز: أوروبا، وأسيا، وأمريكا مما قد يؤدى إلى الصراع بين هذه المراكز والإضرار بالجميع.

قوة الردع لتحقيق السلام

ويتضمن القسم الثانى فى الإستراتيجية الجديدة، ما اسماه "قوة إدارة النظام" حسن إعداد وتدريب العناصر الموالية فى بلاد "الفجوة" حتى تكون على درجة من الكفاية لتوجيه بلادها نحو مركز العولمة الفعال، كما تتضمن شقا خاصا بآليات التحكم فى مصادر الطاقة، وفى حركة رؤوس الأموال المتجهة إلى أسواق دول "الفجوة" وفى حركة التجارة الدولية، والمعونات الاقتصادية، وسياسات الهجرة من "الفجوة" إلى المركز بحيث تتكامل هذه السياسات مع بعضها البعض لجنى ثمار استخدام قوة الردع الساحقة المخيفة من أجل تحقيق عالم يسوده السلام.

ولما كان نجاح هذه الإستراتيجية يتطلب عملا "مباشرا" و"أحاديا" فتنفيذها قدر الولايات المتحدة الأمريكية، وعلى دول مركز العولمة تفهم ذلك ودعم الجهود التى تبذلها أمريكا فى هذا الصدد لتصدير الأمن إلى العالم!.

ويحرص المؤلف على إبداء روح التفاؤل حول هذه الوصفة العجيبة التى يرى فيها علاج مشكلات العالم وإيجاد صيغة جديدة اجتماعية - سياسية - ثقافية تصنع فى أمريكا وتفرض على الدنيا كلها فى القرن الحادى والعشرين فى عالم لا فكاك فيه من العولمة وهى تعنى الهيمنة الأمريكية على شئون الدنيا كلها وصبغها بالصبغة الأمريكية، فهو لا يحدد لأوروبا دورا فى هذه الإستراتيجية سوى دور الاقتناع بأهميتها ومساندتها، ولا يرد أى ذكر للأمم المتحدة فى إستراتيجية، ولا حتى فكرة استخدامها كأداة لدعم وتغطية بناء الإمبراطورية الأمريكية، ولعله كان فى ذلك "براجماتيا" صريحا، فلا يجد أن ثمة حاجة إلى

الأمم المتحدة بعد التحول في الدور الدفاعي الأمريكي، وأمام "القوة الساحقة المرعبة" والقوة الأخرى، إدارة النظام التي تتحكم في الاقتصاد العالمي ومصادر الطاقة والأطر القانونية المنظمة لذلك كله.

ولا يعني إقلال المؤلف من شأن الصين كمصدر للخطر على مشروع الهيمنة الأمريكي، واعتبار الهند أيضا ضمن مركز العولمة أن إستراتيجية الهيمنة الإمبراطورية الأمريكية، لن تطالهما وغيرهما من البلاد التي تقف حجر عثرة في طريق هذه الإستراتيجية ففي إستراتيجيات التحكم في مصادر الطاقة والاقتصاد العالمي ما يضمن بسط الهيمنة الأمريكية على الجميع.

ونموذج "العولمة المركزي" المثالي عند بارنت هو الولايات المتحدة بالطبع، وهو النموذج الذي يهدف - في نهاية الأمر - إلى تعميم نظامه الاجتماعي - السياسي - الثقافي في هذا الكوكب، وهو نموذج يعاني أزمة "اندماج" في "العولمة" بقدر لا يقل عما تعانيه منطقة "الفجوة" أو "ثقب العولمة" (على حد تعبيره) سواء على الصعيد الاجتماعي (الفقر وتدهور الخدمات الاجتماعية والتميز العنصري) أو على الصعيد الثقافي (ضعف التعليم العام، والجهل الشديد بأمر العالم، وشيوع القيم المرتبطة بثقافة العنف)، كما أن آليات تنفيذ إستراتيجية القرن الحادي والعشرين عصفت بإرث الليبرالية في أمريكا المتمثل في الحريات الشخصية في إطار تطبيق "قانون الوطنية" الذي جعل النظم الأوتوقراطية الاستبدادية في عالم "الفجوة" تتنفس الصعداء، وتجد تبريرا مناسباً لطغيانها طالما كان النموذج الأمريكي يتيح استخدام نفس الممارسات المقيدة للحريات "الرقابة والاعتقال بالشبهة" والتعذيب وامتهان كرامة المواطن باسم حماية الوطن.

خطة بناء الإمبراطورية

ترى ماذا يكون الموقف من تلك "الفجوة" في أمريكا ذاتها، وما آليات إدماج الطبقات الاجتماعية الأمريكية التي تعيش حياة العالم الثالث في مركز العولمة هل ستستخدم القوة الساحقة المرعبة؟ أم سيكتفى بقوة إدارة النظام؟! بل ما مدى صبر المواطن الأمريكي على تمويل خطة بناء الإمبراطورية من كده، طالما أن عائدها يصب في خزائن أقطاب المحافظين الجدد الذين يملكون الجانب الأكبر من أسهم شركات السلاح والبتروول والمصالح المالية الكبرى!؟.

من الغريب أن الكتاب صدر في أبريل 2004 الذي شهد مأزق الولايات المتحدة في العراق، وفضح حقيقة إدعاءات التحرير وحماية حقوق الإنسان، بعد كل ما تسرب عن معاملة السجناء في العراق وما اتضح من علم الرئيس الأمريكي بوجود لوائح للتعذيب مستخدمة منذ حرب فيتنام، وما كشف عن صدور تعليمات وزير الدفاع الأمريكي تطبيقها في سجن أبو غريب، لقد شهد أبريل فضيحة المشروع الأمريكي الإمبراطوري أمام العالم كله، فضلا عن المعارضين للحرب في أمريكا ذاتها الذين كتبوا في أبريل مقالات في صحف مختلفة يكشفون فيها التزام إدارة بوش التي يديرها المحافظون الجدد بالأجندة

الإسرائيلية فى الشرق الأوسط، وتوجيههم للعمل العسكرية نيابة عن إسرائيل وبالرجوع إلى مستشارين من ضباطها، ويعلنون - صراحة - اعتراضهم على ذلك، الربط بين مصالح الولايات المتحدة ومصالح إسرائيل، ويرون فى ذلك ضررا بالغا ببلادهم ناهيك عن نتيجة الاستفتاء التى أعلنها الإتحاد الأوروبى (فى فبراير) والذى رأى غالبية المشاركين فيه أن أمريكا وإسرائيل هما مصدر التهديد للسلام العالمى.

ولا شك فى أن صدور هذا الكتاب - فى هذا الوقت - بالذات وما صاحبها من تصريحات المدعى العام الأمريكى فى وسائل الإعلام من احتمال توجيه القاعدة لضربة جديدة داخل أمريكا، إنما تهدف إلى إثارة مخاوف المواطن الأمريكى حتى يعطى تأييده لسياسات المحافظين الجدد، ويجدد لبوش الدورة الرئاسية الثانية.

بقى أن نعى نحن الذين وقعوا فى "ثقب" العولمة حقيقة ما يدبر لنا، وأن نسعى جاهدين للفكاك من مخالب الهيمنة الأمريكية، ووضع الإستراتيجيات البديلة لتحقيق هذه الغاية والخروج من المأزق الذى وضعتنا فيه أمريكا، فلا تكفى عبارات الشجب والاستنكار والرفض، بل يجب تنمية حركة المناهضة للإمبراطورية الأمريكية، وإصلاح نظمنا السياسية بالقدر الذى يحقق تماسك جبهاتنا الداخلية، ودعم المنظمات الإقليمية والدولية لتحقيق هذه الغاية.